القبة والطير

او

مثال من رسوم الملك وآلاته في دولة المماليك

بمصر كما وردت في صورة فارسية

بقلم مدام و . ل .ديفونشير : تعريب محمود عكوش

لقد زاد الاهتمام في العهد الاخير زيادة لم تعهد من قبل بالصور التي تتحلى بها المخطوطات الفارسية وظهرت عنها مطبوعات لطيفة كالتي صدرها السير توماس ارنولد والدكتور مارتن والمستر لورنس بينيون والمسيو بوفيه والدكتور كوهن وغيرهم فاصبح السبيل ممهداً امام الجمهور للاستفادة من هذه الطرف المصوّرة

وعادت هذه التسهيلات على المشتغلين بدراسة التاريخ الاسلامي بالنفع الجزيل لكثرة المعلومات التي اصبح من الممكن الحصول عليها بامعان النظر في هذه الطرف . وليس الامر في ذلك قاصراً على الصور النادرة التي تمثل بعض المسلمين بهيئاتهم وملابسهم بل لان هذه الطرف تجمع ايضاً كثيراً من التفاصيل النفيسة من زخرفة البيوت وادواتها وزينتها والازياء وغير ذلك

وقد تملكني الفرح بينما كنت اقلب بعض الصور الجميلة التي طبعت في مجلة «ذي ستوديو» من ديوان النظامي المحفوظة اصولها في المتحف البريطاني وعني المستر لورنس بالكلام عليها اذ عثرت بينها على صورة تمثل احد ملوك فارس من القرن الثاني عشر الميلادي فيها بعض رسوم المُلْك التي كان يتخذها بعض سلاطين المماليك وكنت اتلهف للاطلاع عليها من زمن طويل وهي صورة « القبة والطير » المتعدد ذكرها في وصف مواكبهم الملوكية اثناء حكمهم على مصر والشام

وفي الشكل رقم ١ صورة سمح لي بنقلها من الاصل المحفوظ بالمتحف البريطاني يرى فيها السلطان سنجر وهو على فرسه يستمع لامرأة عجوز وقفت تحتج عليه بسبب اطلاقه عنان الحرية لجنوده وعلى رأس السلطان المظلة الملوكية وفوقها الطير الذهبي يحملها احد الفرسان وهو في زيه الجميل

---

(١) نشرت هذه المقالة في مجلة « ايوانو » الانكليزية في الجزء الرابع عشر في العدد رقم ٨٣ شهر توفير سنة ١٩٣١ بعنوان An Egyptian Mameluke Feature in a Persian Miniature, by Mrs. R. L. Devonshire.

(ش ١) السلطان سنجر على فرسه يشفع لعجوز (المتحف البريطاني)

أمام صفحة ٤٧

ونشر مسيو بلوشيه في كتابه « صور المخطوطات الفارسية والتركية بمكتبة الاهلية » طبع باريس سنة ١٩١٠ صورة اخرى تمثل هذه الواقعة نفسها وهي من عمل محمد المزوق المشهور في سنة ٩٥٢ هجرية الا ان المظلة المرفوعة على رأس السلطان كانت تعلوها « كرة » بدلاً من الطير . وهناك صور اخرى فيها مظلات محمولة على رأس السلطان ولكني لم اعثر بينها على مظلة واحدة عليها الطير

ويوجد في المناظر الموضوعة عن بلاد الشرق وافريقية وفي بعض المؤلفات امثلة عديدة من المظلات التي كانت تعد من شعار الملك[1]

ومن أقدم هذه الامثلة صورة من النقوش البارزة في مدينة پيرسيپوليس (تشهل منار) بالقصر الاخيميني تمثل الملك اكزرسيس ماشياً وبعض حجّابه يحمل المظلة على رأسه (لوحة ١٥ من كتاب « الفن ببلاد فارس القديمة تأليف سار ») . وقد ارشدني مسيو بلوشيه الذي تلطف وساعدني مساعدة قيمة في هذا البحث الموجز الى ان المظلات الصينية والانامية كانت حمراء اللون ولها حاشية تختلف لونها عن اللونين الاصفر والذهبي المستعملين في مصر

واورد كارمير عدة نصوص عن المظلات الملوكية في بلاد الاسلام في ترجمة السلوك للمقريزي المسماة « سلاطين المماليك » وفي ترجمة « سلاطين المغل » لرشيد الدين

وذكر ابن بطوطه عن بعض حكام القسطنطينية — ممن لم تعرف شخصيتهم للآن — انه اكرمه برفع « الچتر » على رأسه . وقد اطلعت في كتاب مختصر التاريخ لفضل بن ابي الفضائل (پاترولوجيا اورينتالي) طبع بلوشيه ص ٥٢٦ على قصة لاحد الامراء وكان معجباً بحمل الچتر على رأسه . ونقل كارمير من « كتاب تاريخ دولة آل سلجوق » للفتح بن علي ابن محمد البنداري الاصفهاني ان السلطان سنجر في حربه مع الخطا بق في عدد قليل فقال له الامير ابو الفضل صاحب سجستان « قد احدقت بنا العساكر ودارت علينا الدوائر فانج بنفسك لاقف مكانك تحت الچتر » . وقال الكولونيل ز . ب . جنتيل في كتابه « مختصر تاريخ ملوك هندستان أو مملكة المغل » على ما رواه عنه بلوشيه انّ محمد شاه . . . توفي في ٢٢ ربيع الثاني . . . واخفت زوجته المعروفة باسم « ملك زماني » موته خشية من حصول اضطراب وكتبت الى كبير الوزراء تخبره بذلك وتطلب اليه الحضور بابن السلطان وكان صغيراً الى دهلي على جناح السرعة فعند له الوزير چتراً وفي اليوم التالي حُمِل الچتر على رأس الامير في مقدمة الجيش اعلاناً بارتقائه عرش السلطنة

وما ورد في هذه النصوص وسواها لا يعدو الكلام فيه الچتر او المظلة التي على هيئة قبة

(١) قال ابن خلكان في كلامه عن فتح الاندلس : وحمل لزريق (رودريك) على سريره وقد رفع على رأسه رواق ديباج بظله (ج ٢ ص ١٢٨) المترب

ولا ذكر فيها للطير . وفي سيرة صلاح الدين ومن خلفه من الملوك من بني ايوب في مصر والشام لم يرد ذكر شيء من آلات الملك . وربما كان السبب في ذلك تنحيهم عن هذه المظاهر لخليفة بغداد . اما الخلفاء الفاطميون في مصر فانهم اتخذوا المظلة في مواكبهم الرسمية وقد ذكرها المؤرخون بلفظها العربي « المظلة » ومعناه الشيء الذي يستظل به . وقد وصف ناصر خسرو موكب الخليفة المستنصر وكان قد شاهده وعلى رأسه المظلة وذكر المقريزي عن المسبحي المظلة المذهبة التي كانت للخليفة العزيز والظاهر انهُ لم يكن عليها طير بدليل ان القلقشندي ايضاً لم يذكره ضمن وصف الآلات الملوكية في « المواكب العظام » على ايام الفاطميين . وكذلك ذكر المقريزي المظلات والقضب من الفضة والذهب في تعداد ما كان في خزائن المستنصر من الذخائر . ولم يذكر طيوراً من الذهب ولو كانت موجودة وقتئذ لما اغفل ذكرها

***

ويظهر ان احد ارباب الوظائف في العهد الفاطمي كان مكلفاً حمل المظلة لان زيدان الذي قُتِل برجوان الوزير على يده بأمر الحاكم في سنة ٩٩٩ ميلادية كان يلقب « بصاحب المظلة » وفي عهد المماليك كان الذي يقوم بهذه الخدمة امير لهُ المقام الاول بين الامراء ويلي السلطان في المرتبة ويكون في اغلب الاحيان « اتابك العسكر » وكثيراً ما كان السلطان يقتل ويخلفه في الحكم من كان يقوم له بهذه الخدمة[1] . وفي عهد المماليك اصبح الطير ملازماً للقبة لان جميع المؤرخين المعاصرين لهم كانوا اذا وصفوا موكباً من المواكب المصرية ذكروا « القبة والطير » (شكل رقم ٢) وقد أتى ابن اياس على ذكر ما لا يقل عن اثنين وعشرين سلطاناً اتخذوا القبة والطير لهم شعاراً واكثر هؤلاء السلاطين من الدولة الثانية للمماليك الجراكسة ويكادون يكونون معاصرين له . ومما يحسن بنا الاشارة اليه ان من لم يذكر ابن اياس في كلامه عنهم القبة والطير ذكره غيره من المؤرخين فنراه مثلاً لم يذكر هلفي كلامه عن لاجين سنة ١٢٩٦م ولكن المقريزي على ما ذكره عنه لين پول في تاريخ مصر ص ٢٩١ يقول ان الامير بيسري حمل له القبة الملوكية فوق رأسه . وقال المفضل (طبع بلوشيه ص ٤٧٧) ان « بيسري » حمل القبة ايضاً على رأس بركة ابن بيبرس الكبير وقد فات ابن اياس ان يذكر ذلك في كلامه عن هذا الاخير ، وفيما يلي نرى ابا المحاسن يستوفي ما اغفله ابن اياس كما فعل في كلامه عن الملك الظاهر ططر سنة ١٤٢١م

ولقد بحث المؤرخون في امر « القبة والطير » فقال لين پول انها مظلة تعمل من حرير

---

(١) جاء في كلام المقريزي عما كان يعمل بيد صلاة البيدين (ج ٢ ص ٢٢٩) على عهد الملك الناصر محمد بن قلاون قوله : ويخلع على حامل القبة والطير وعلى حامل السلاح والاستادار والجاشنكير وكبير من ارباب الوظائف . ويؤخذ من ذكر صاحب هذه الوظيفة قبل غيره من الامراء انه كان متقدماً عليهم

(شكل ٣) القبة والطير

مقتطف يونيو ١٩٣٢ (شكل ٤) چكيز خان امام صفحة ٤٩

اصفر يطرز بالذهب وتتوج بطير من ذهب جاثم على قبة من ذهب وهو وصف لم اعثر على ما يؤيده وقد يكون معدوده خطأ في ترجمة قول القلقشندي ان المظلة على هيئة قبة . وقد شرح المقريزي وابن خلدون وغيرهما كيف اهملت كلمة مظلة العربية واستعمل بدلاً منها اللفظ الهندي القديم « چتر » الذي له المعنى نفسه[1] . وجاء في رحلة ابن بطوطه وهي رحلة مسلية رغم ما يتخللها من اللغو النص الآتي وهو على جانب من الاهمية : « والسلطان هناك (دهلي سنة ١٣٢٠ م) يعرف بالشطر (چتر) الذي يرفع فوق رأسه وهو الذي يسمى بديار مصر القبة والطير ويرفع بها في الاعياد واما بالهند والصين فلا يفارق السلطان في سفر ولا حضر »

***

وقد اطلق ابن بطوطه على المظلة اسم القبة والطير وذلك في كلامه عن مصر خاصة ولكنه سماها جتراً في الكلام عن غيرها فقال عن « منسي سليمان » سلطان « مالي » الواقعة على النيجر سنة ١٣٥٣م : و « يرفع له (فوق مجلس السلطان بالمشور) الشطر وهو يشبه قبة من الحرير وعليه طائر من ذهب على قدر البازي ». ويؤيد هذا الخبر مؤلف آخر وهو العُمَري الذي ترجم كتابه اخيراً بمعرفة مسيو جود فروا دومومبين احد مشاهير المشتغلين بدراسة ذلك العهد من التاريخ الاسلامي فقال في بعض تعليقاته انه يظن ان هذه العادة نشأت في مصر. وفي الواقع نجد في قول العُمَري وفي كلام المقريزي ان موسى بن ابي بكر الذي كان متولياً الحكم قبل منسي بن سليمان سافر الى مصر والحجاز في سنة ١٣٢٣ م اثناء حكم الملك الناصر محمد بن قلاون . وقد تجددت الآن الفكرة القائلة بأن اتخاذ الطير او الباز كشعار يرجع في الاصل الى المغل بدلالة ما يرى في الصور الفارسية . وفي المكتبة الاهلية صورة على جانب عظيم من الاهمية ضمن ما نشره مسيو بلوشيه بعنوان « الصور والكتب الخطية الشرقية الموجودة في المكتبة الاهلية » ، وقد نشرتها الجمعية الفرنسية لنقل الكتب الخطية والصور (سنة ١٩١٤ — ٢٠ ، لوحة ١٩) وهي تحتوي على صورة محفة للسلطان محمود غازان ملك المغل بفارس (١٣٠٤ م) . وهي اذا وقع النظر عليها بدت قريبة الشبه بالمظلة وقد علاها طير من الذهب او المعدن المموه بالذهب . ويظهر انهُ باز او صقر وفي الصورة مظلتان لا طير عليهما مطويتان ومربوطتان من اعلاهما اشارة الى وقت الصباح وفيها ايضاً ذيل فرس . وكان المغل والترك يتخذانهِ علَماً وفي صورة اخرى (شكل رقم ٣) ذيول من هذا القبيل ولكنها بيضاء لا سوداء . وقد نقلت في كتاب

(١) وقد ذكر المقريزي الجتر مراراً في كلامه عن السلطان محمد بن طغان شاه (ج ٢ ص ١٢٤) وقال في كلامه عنه ايضاً : واذا خرج في تصره من موضع الى آخر يمر راكباً وعلى رأسه الجتر والسلاح دارية ورامه بايديهم السلاح وحوله نحو اثني عشر الف مملوك مشاة لا يركب منهم الا حامل الجتر (ج ٢ ص ١٢٥)

« الصور » لمسيو بلوشيه المتقدم ذكره . ويشاهد في هذه الصورة تيمورلنكين (الذي صار فيما بعد جنكيز خان) جالساً على عرش صيني وفرقه الطير الذهبي جاثماً على ظهر العرش لا على مظلة كشعار الملك . وهذه الصورة والتي قبلها منقولتان من المكتبة الاهلية عن نسخة من تاريخ المغل لرشيد الدين كتبت في تبريز في اوائل القرن الرابع عشر . ولم تنفرد هذه الصورة بوجود طير من ذهب جاثم فيها على ظهر عرش الملك بل هناك صورة ثانية في الصفحة ٩١ من النسخة الخطية تمثل ايضاً جنكيزخان (شكل رقم ٤) وصورة ثالثة تمثل ارغون خان (سنة ١٢٨٤ — ٩١) — وكل من هؤلاء جالس على العرش بتلك الهيئة . والصورة الاخيرة (شكل رقم ٥) على غاية من الحسن وهي من المستندات القيمة التي تمثل الملابس وغيرها وقد ظهر الطير فيها بشكل واضح . واذا اعتبرنا الباز من شعار الملك عند المغل فيكون وضعه على المظلة من عمل المماليك التركمان الذين يرجع الى عهدهم دخول كثير من التقاليد المغلية في مصر وذلك بالمصاهرة بين ملوك البلدين والتجاء كثير من المهاجرين الى مصر قبل الاغارة على بلادهم . وقد عرفني مسيو جان ديني من كبار العلماء المشتغلين بتاريخ قدماء الترك ان طائفة كبيرة من مؤرخي الترك في العهد الحاضر ممن وقفوا على مصادر كثيرة مجهولة يذهبون الى ان الباز كان من شعار خاقان قبائل أويغور الكبرى المتحالفة وهم اجداد السلجوقيين والعثمانيين . وقد كان هذا التحالف يجمع اربع طوائف من ست قبائل على رأس كل طائفة منهم خان شعاره طائر اي باز (طغرل طغان طغرى وغير ذلك) . ولهذا الطائر على ما يظهر اساطير عديدة ومع ان مسيو جود فروا دومومبين لم يسلم بتلك الاقوال فقد نقل عن مسيو مينورسكي انهُ يجد في هذا الطائر « توتم » قدماء السلجوقيين فهل يكون هذا الطائر من تقاليد عصر الحيثيين القديم ؟

* * *

وكانت القبة والطير في مصر تحفظان في الزردخانة الملوكية ويستحضران منها كلما قضت بذلك شؤون المملكة فلما حاول المستعين بالله الخليفة العباسي ان ينادى به كسلطان على دمشق في سنة ١٤١٢ م لم يذكر ابن اياس القبة والطير في وصف الموكب الذي عمل له ولكن لما وصل الى مقر الحكم بالقاهرة الاتابك شيخو الذي تولى السلطنة بعد بضعة شهور عوضاً عنه باسم الملك المؤيد حملت المظلة الملوكية فوق رأسه وربما كانت قد استحضرت خصيصاً لهذه الغاية

واذا انتهينا الى آخر سلطان من المماليك بمصر وهو السيء الحظ طومان باي سنة ١٥١٦ م نجد ابن اياس يقول انهم لم يجدوا له في الزردخانات قبة ولا طيراً بل ولا سرجاً من ذهب لترسه

والظاهر ان القبة والطير لم يكونا موجودين عند مبايعة قايتباي بالسلطنة لان ابن اياس لما روى خبر لباسه شعار الملك غصباً وهو يتمنع قال ان هذا السلطان الذي كان ممتنعاً اذن

(ص ٣) تيمورلنكين (الذي دعي فيما بعد جنكيز خان) على عرش صيني

مقتطف يونيو ١٩٣٢

امام صفحة ٥٠

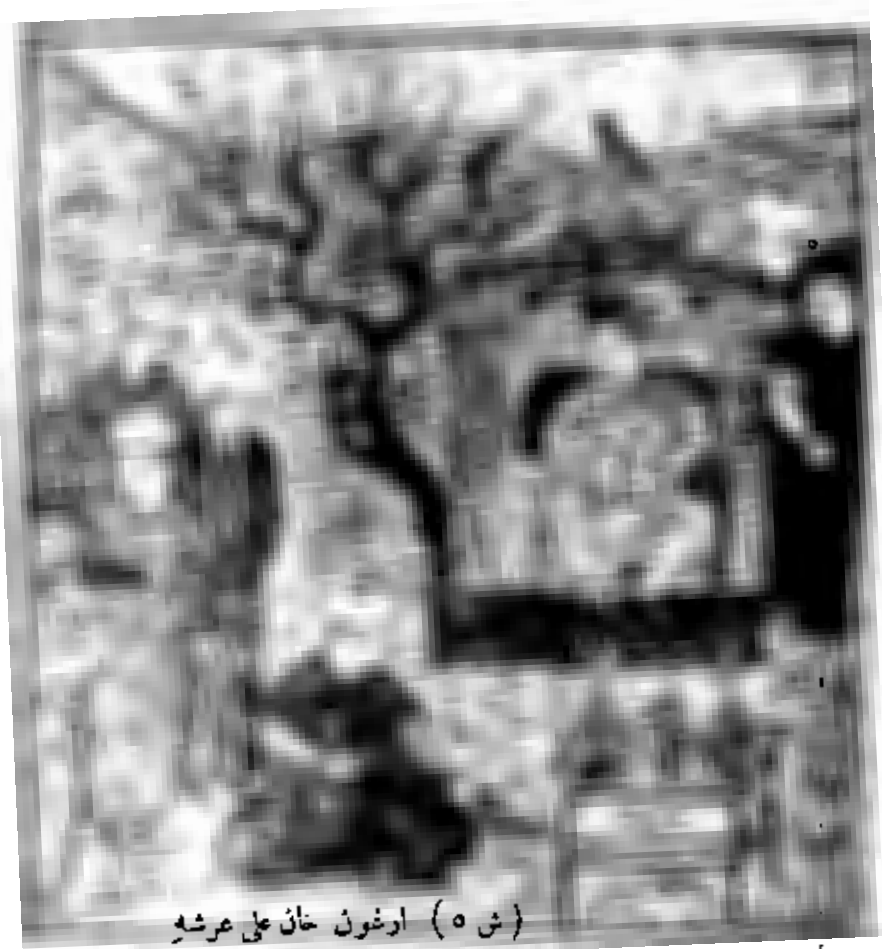

(ش ٥) ارغون خان على عرشه

للامير جاني بك قنقسير امير سلاح بأن يفرد السنجق السلطاني على رأسه لعدم حضور القبة والطير من الزردخانة

***

وفي اثناء تعريب هذه النبذة طلبت مني حضرة السيدة ديفونشير ان الحقها بالكلمة الآتية:

قالت : بعد مضي عدة شهور من كتابة هذا البحث اتفق لي كما يقع كثيراً أن عثرت على مثال آخر ذي شأن في فقرة أوردها ابن اياس الذي تصفحت كتابه مراراً جاء فيها : ان القبة والطير حملا على رأس امرأة وهي خوند زينب زوجة السلطان اينال في طلوعها الى قلعة القاهرة بعد عودتها من الحج في سنة ٨٦١

وفي الوقت الذي عثرت فيه على هذا الخبر وجدت صورة اخرى للقبة السلطانية وفوقها الطير في كتاب تاريخ المغل لرشيد الدين الذي نشره جناب مسيو بلوشيه

وقد ظهر الآن الجزء الرابع من تاريخ ابن اياس الذي عني بطبعه مسيو پول كاهل ومحمد مصطفى بالاستانة ، مشتملاً على حوادث المدة من سنة ٩٠٦ الى سنة ٩٢١ اي خلال حكم الغوري والفتح العثماني بقلم هذا المؤرخ الذي كان معاصراً لهذه الحوادث وشاهد اكثرها ودوّن عنها معلوماته

وقد تفضل جناب الدكتور مكس ميرهوف وكلٌّ يعرف ميله لمساعدة المشتغلين بمثل هذه المباحث فاستخرج من هذا الجزء تكملة لهذا البحث ويسرني جداً ان اقدمها للقراء وهي :

« جمادي الاولى سنة ٩١٧ »

« وفي يوم السبت نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو قبة الامير يشبك التي « بالمطرية . . . . . وكان السلطان قصد ان تحمل على رأسه القبة والطير فمنعوه الامراء عن « ذلك وقالوا لهُ ما هي عادة ان السلطان اذا خرج الى المطرية تحمل على رأسه القبة والطير « فرجع عن ذلك »

شوال سنة ٩٢٠

« ثم طلع الى الدهيشة[1] وعرض الصناجق السلطانية والقبة والطير وقد غير الطير الذهب « الذي كان فوق القبة وجعل مكانه هلال ذهب »

وفي ذي الحجة سنة ٩٢٠ وقع الهلال وانكسر : وقد ذكر المؤلف بعد ذلك ان الطير كان قد حصل لهُ مثل ذلك في عهد السلطان قايتباي

ر. ل. ديفونشير

(١) من القاعات السلطانية التي كانت بالقلعة عمرها السلطان الملك الصالح عماد الدين اسماعيل في سنة ٧٤٥ هجرية